

إسهامات أبو القاسم سعد الله في الحركة الأدبية والفكرية في الجزائر (قراءة في بعض التجارب والنماذج)

الدكتورة: عجنالك بشي يمينة

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة أبو القاسم سعد - الجزائر 2

ملخص بالعربية :

إن الحديث عن شاعر وأديب و مؤرخ مثل أبي القاسم سعد الله يصعب الإحاطة والإلمام بجميع إسهاماته الأدبية و الفكرية و التاريخية ، لذلك ارتأيت أن أختصر و أقتصر في هذا المقال على بعض الجوانب من إسهاماته في مجال الحركة الأدبية و الفكرية في الجزائر .

الكلمات المفتاحية: الحركة الأدبية و الفكرية في الجزائر ؛ التجديد في الشعر عند سعد الله ؛ أدب جزائري .

ملخص بالانجليزية :

The talk of a poet, writer and historian such as Abu Qasim Saad Allah is difficult to take note of all his contributions to the literary and intellectual, and historical, so I thought to shorten and limit in this article to some aspects of his contributions in the field of literary and intellectual movement in Algeria.

Keywords: literary and intellectual movement in Algeria ؛ renew poetry at Saad Allah ؛ Algerian literature.

مدخل :

التعريف بشخصية أبي القاسم سعد الله الأدبية

أبو القاسم سعد الله من مواليد 1930م بضواحي قمار (وادي سوف)، الجزائر، باحث ومؤرخ، حفظ القرآن الكريم، وتلقى مبادئ العلوم من لغة وفقه ودين... وهو من رجالات

الفكر البارزين، ومن أعلام الإصلاح الاجتماعي والديني. له سجل علمي حافل بالإنجازات: من وظائف، ومؤلفات، وترجمات وعرف بلقب شيخ المؤرخين الجزائريين .
أ. سعد الله الشاعر الأديب:

الدواوين الشعرية :

له قصائده منشورة في ديوانه الأول الموسوم (النصر للجزائر)¹ الصادر عن دار الفكر بالقاهرة سنة 1957 وهو أول ديوان يصدر له ، وقد كتب مقدمته الشيخ أحمد توفيق المدني.

ويجدر بنا ان نذكر أنه بعد عشر سنوات من ذلك اي سنة 1967 قد صدر لسعد الله عن دار الآداب ببيروت ديوان ثان بعنوان (ثائر وحب)² وهو تنقيح ونشر لما لم يصدر في ديوانه الأول صدر عن دار الآداب ببيروت سنة 1967، ثم ديوانه الثالث (الزمن الأخضر...) ³ الصادر سنة 1985 عن المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر ، وهو يشبه الأعمال الشعرية الكاملة.

- سعة خضراء (مجموعة قصص)⁴. هو العنوان الذي اختاره سعد الله لمجموعته القصصية، و التي تتضمن مجموعة من القصص مستوحاة من الواقع الذي عاشه سعد الله وهي : (فتاة القرية، سعة خضراء ، ليلة غرام، مرارة التبغ، ممنوع الدخول) و تحتوي فوق ذلك على محاورتين هما : (عندما لبست العمامة و أديب الخلود).

ب- سعد الله ودراساته الأدبية والنقدية:

1- كتاب : شاعر الجزائر، محمد العيد آل خليفة:

عرّف سعد الله في هذه الدراسة بشعر محمد العيد آل خليفة وأبرز كل ما يتعلق به من قريب أو بعيد، وهذه الكتب هي: -شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة [هو أول كتاب ألفه، حيث خصه لدراسة حياة وشعر محمد العيد آل خليفة [1904-1979م]، وتولى تقديمه الإمام العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وكان الشاعر محمد العيد حيا حين نشر هذا الكتاب. وقد فصل سعد الله القول في حياة محمد العيد وأبرز

--ينظر: أبو القاسم سعد الله ، ديوان النصر للجزائر، دار الفكر القاهرة، 1957. 1.

---ينظر: أبو القاسم سعد الله ، ديوان ثائر وحب ، دار الآداب بيروت 1967. 2.

-ينظر: أبو القاسم سعد الله ، ديوان الزمن الأخضر، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985. 3.

-ينظر: أبو القاسم سعد الله ، سعة خضراء (قصص) ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1986. 4.

العوامل التي كونت شخصيته وأورد آراءه وتجاريه، كما تحدث بالتفصيل عن شعره من حيث تطوره وأغراضه ومنزلته التي قال عنها أبو القاسم سعد الله: (هو في زهده تظهر بساطة أبي العتاهية ، وتسامي ابن الفارض، وتحرر الغزالي وابن تيمية¹.

2- كتاب : دراسات في الأدب الجزائري الحديث²:

يعتبر كتاب دراسات في الأدب الجزائري الحديث باعتراف مؤلفه مجموعة المقالات والدراسات التي كان قد نشرها في الدوريات العربية (1955-1960) عند ما كان طالبا بكلية دار العلوم في جامعة القاهرة بالإضافة إلى ان الهدف من إعادة النشر هو التعريف بالأدب الجزائري و للمساهمة في محاولة فك الحصار الذي ضربه الاستعمار حول الجزائر ومدد الفراغ المخيف الذي تعانیه المكتبة العربية بخصوص الحركة الفكرية في الجزائر.

3- كتاب : تجارب في الأدب والرحلة.³

يقترّب كتابه الهام "تجارب في الأدب والرحلة " من بعض القضايا الأدبية والتاريخية ويقدم رحلاته لبعض الأماكن الجزائرية والعربية المغرب والجزيرة العربية و خنقة سيدي ناجي) وكذلك رحلات غيره من الشخصيات، كما يتضمن الكتاب بعض الحوارات التي أنجزت مع أبي القاسم سعد الله.

أغلب مقالات الكتاب تعود إلى سنوات الخمسينات والستينات، وفيها الكثير من ملامح التفكير النقدي الأدبي المتميز، حيث يمكن أن نتبع عبرها تاريخ الممارسة النقدية الجزائرية⁴.

¹ - ينظر : أ.د مسعود فلوسي، جهود المؤرخ سعد الله في التعريف بعلماء الجزائر / موقع :

<http://www.oulama.dz>

² . ينظر : أبو القاسم سعد الله ، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، عدة طبعات، أولها في دار الآداب، بيروت، 1966م والدار التونسية للنشر، 1985م و دار الرائد الجزائر 2007.

- ينظر : أبو القاسم سعد الله ، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية، الجزائر، 1983م.

- ينظر : د.وليد بوعديلة ، القضايا الأدبية في كتابات أبي القاسم سعد الله/ موقع:

<http://www.oulama.dz>

4- كتاب : القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني:¹ يدرس هذا الكتاب سيرة الشيخ محمد الشاذلي القسنطيني [1807-1877م]، من خلال رسائله وشعره، وقد عالج فيه المؤلف عصر الرجل وحياته، ورحلاته إلى أوروبا، ومراسلاته وبعض مواقفه، وعلاقته بالأمير عبد القادر، وشعره وشاعريته.

- جدير بالملاحظة أن أبا القاسم سعد الله له مؤلفات أخرى كثيرة و معتبرة في التعريف بعلماء الجزائر وكتابتها والتعريف بالتراث الثقافي و تحقيق المخطوطات والترجمة وغيرها

- تجربة سعد الله الصحفية:

بدأ سعد الله حياته إعلاميا، مراسلا من تونس في جريدة (البصائر) التي كانت تصدرها جمعية العلماء، وفي غيرها من جرائد تونس، وكان في خواتيم الأربعينيات ومطالع الخمسينيات من القرن الأقل شاعرا شائبا مُغَرِّداً في آفاق الوطنية المكبلة من طرف الأسر المحتل، كما كان قاصاً مُبْدِعاً وصاحب خواطر رائعة نشرها هنا وهناك في جرائد الجزائر وتونس ومجلة (الآداب) البيروتية، وكان مُتَابِعاً ومُطْلِعاً على ينابيع الثقافة المشرقية، وظل على تلك الحال قارئاً نهماً يطالع كل ما يقع في يده من كتب ومجلات وجرائد ومطبوعات.

في تونس نجح في نشر تجاربه القصصية وأشعاره الأولى وخواطره المبدعة في جريدتي: (الهضة) و(الأسبوع) وهو دون العشرين، وفي تونس. أيضا. تعرّف على أدب المشرق وتابع باهتمام وانتظام ما كانت تنشره: (الآداب) اللبنانية و(أبوللو) و(الرسالة) المصريتان وغيرهما من المجالات الأدبية التي لم تكن تصل إلى الجزائر، وكان مساره في هذا الاتجاه الجديد مُوَفَّقاً، بل كان بمثابة الفتح العلمي الجديد الذي جمع بين الاطلاع والنشر.² والواقع أن انطلاقته الإيجابية وجرائته على النشر ومساهمته في الحياة الأدبية كانت من الحوافز التي جعلت طموحات الشاب سعد الله في محلها، وكسرت مخاوفه النفسية،

- ينظر: أبو القاسم سعد الله ، القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني ، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985 م ¹

http://shamela-dz.com/ . ينظر: د.مسعود فلوسي ، جهود المؤرخ سعد الله في التعريف بعلماء الجزائر /

- أ. د. عبد الرحمن عزي ، أبو القاسم سعد الله يتحدث عن تجربته في الصحافة موقع: <http://www.veecos.net> . 23:36 2012 25 يناير الأربعاء

وفسحت أمامه أبواب العلم وما فيه من تحديات وعراك فكري ونقاشات فيها الانتقاد والاختلاف الذي تمليه سلطة المذاهب الأدبية والمدارس الاجتماعية والفلسفية، بله ما تفرضه هيمنة التيارات السياسية.¹

ومن جهوده في تلك الأثناء إسهامه بمعية زمرة من زملائه وصحبه المبدعين في تأسيس (رابطة القلم الجديد) التي اتَّفَقَ على تسميتها والانضمام إليها، و(رابطة القلم الجديد) جمعية أدبية غير معتمدة من أية جهة رسمية، واعتمادها الوحيد هو اتفاق أصحابها ومؤسسيها على تسميتها بهذا الاسم؛ وهي قائمة فيما بينهم فقط، وقد نشر بعضهم باسمها محاولاتهم الأولى، وهي تتألف من تونسيين وجزائريين، وكان أبرزهم الشاب أبو القاسم سعد الله الذي ظل أكثر التزاما بـ (رابطة القلم الجديد).

والملاحظ أن (رابطة القلم الجديد) كانت تفتقر إلى منبر يجمع شتاتها، ويتولى نشر إسهامات أعضائها الذين راح كل واحد منهم ينشر نتاجه الأدبي في أية جريدة أو مجلة تتاح له فيها فرصة النشر. وتبقى (رابطة القلم الجديد) رابطة قائمة بوساطة الاتفاق بين أعضائها، ولا يكاد يُعرَفُ لها وجود في واقع الناس، فهي رابطة اقتصرَت على مؤسسيها وحدهم.²

لقد انتفع سعد الله بذهابه إلى تونس بكل ما كان يُنَشَرُ هناك من ثقافة متنوعة، وعلى الرغم من كثرة المواد التي كانت مقررة على طلبة الزيتونة يومذاك .. كان فَرَادَة بين أقرانه وَلَدَاتِهِ وظاهرة علمية تَنَمَّأُ عن غيرها، وبذلك استطاع أن يُوَقِّقَ بين مهمة الطلب والتحصيل والازدياد من الكتب الخارجة عن المقرر، وقد كان لكل تلك الكتب التي كانت تستهويه وتأخذ بمجامع قلبه الأثر البالغ في تكوينه وتحصيله اللغوي وصقل مواهبه في مجال الشعر والفن القصصي.³

¹ - ينظر المرجع نفسه .

² - ينظر المرجع نفسه .

³ - أحمد بن سائح ، سعدالله فارس العلم و القلم و رائد المدرسة التاريخية /موقع: <http://www.shamela-dz.com> 23 ديسمبر 2014 08:57 .

يلخص سعد الله تجربته الصحفية قائلا: " كانت تجاربي الأولى في الكتابة في الصحف التونسية، ومنها النهضة والزهرة والأسبوع، وبعض المجلات مثل الندوة والمعارف. فقد كنتُ أرسل هذه بقطع شعرية وقصص ومقالات وتعاليق، ولكنها كانت لا تنشرها، أو لا تنشر منها إلا جزءاً صغيراً تختاره؛ ربما تشجيعاً لي أو مثلاً لفرغ فيها، على أن بعضها نشر لي قصيدة كاملة، مثل الأسبوع. ولم أكن أذهب إلى هذه الصحف لأربط علاقات وأعرف شروط النشر وأطلع على سير المطبعة والتحرير، ونحو ذلك، وإنما كنت أكتفي بالمراسلة. ولم أكن احتفظ بنسخة مما أرسله في الفترة الأولى من حياتي. ولا شك أن بعض مراسلاتي كانت لا تصل إلى أصحاب تلك الصحف...¹

تجربة سعد الله الصحفية مع جمعية العلماء :

كما تحدث سعد الله عن اكتشافه المبكر لدعوة جمعية العلماء التي لمس تأثيراتها في بلدته قمار بوادي سوف بعد زيارتها من طرف الإمام عبد الحميد بن باديس وبفضل نشاط الشيخ محمد الطاهر تليلي. واكتشف آثارها في محيط عائلته التي تعاطفت مع حركة الإصلاح وبالأخص خاله الشيخ الحفناوي هالي الذي كان عضوا بارزا في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

وعن طبيعة علاقته بالجمعية كتب سعد الله مقالا يوضح فيه موقفه قائلا: "...وإني لأنصح الذين ينتقدون سلوك جمعية العلماء ويحكمون على برامج سيرها في الحياة وخططها في الإصلاح الاجتماعي بأن لا يتسرعوا في الحكم. ولا يتعجلوا بالانتقاد وعلمهم أن يتبينوا الرشد من الغي بالرأي السديد والتأمل العميق. وأن يتمتعوا في نتائج الأعمال قبل الحكم على أهلها في البداية فرب تأن أعقب سلامة. ورب تعجل جلب ندامة ولن تبدل سنة الله..."²

بدأت رحلته الأولى مع الجمعية وهو طالب في تونس حينما عيّنه الشيخ العربي التبسي مسؤولاً عن جمعية الطلبة الزيتونيين الجزائريين، ثم عمل مراسلا لجريدة "البصائر"

1- أ. د. عبد الرحمن عزي ، أبو القاسم سعد الله يتحدث عن تجربته في الصحافة، موقع: <http://www.veecos.net> 23:36 2012 يناير 25

2- ينظر : د. مولود عويمر، أبو القاسم سعد الله يحاضر عن تجاربه مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، جريدة البصائر، العدد: 525/ 12 ديسمبر 2010 / الموقع: <http://www1.albassair.org>

التي كانت تصدرها جمعية العلماء. وعاد إلى الجزائر بعد تحصيله العلمي، ليدرس عاما في مدارس جمعية العلماء: مدرسة الثبات بالحراش ثم مدرسة التهذيب بالأبيار¹. ثم سافر سعد الله إلى مصر عن طريق تونس، ووصل إلى القاهرة في نهاية سبتمبر 1954 واتصل مباشرة بالشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي استقر بالقاهرة منذ عام 1952، حاملا له رسالتين من نائبه الشيخ العربي التبسي والأمين العام للجمعية الأستاذ أحمد توفيق المدني. وبقي الطالب سعد الله على صلة قوية بمكتب الجمعية بالقاهرة وساهم في نشاطاتها الثقافية. واحتك أكثر بالأستاذ أحمد توفيق المدني الذي التحق هو أيضا بالقاهرة في أبريل 1956. وحرص سعد الله خلال إقامته بالقاهرة بين 1954 و1960 على الكتابة في جريدة "البصائر" من خلال ركنه: "رسالة القاهرة". وبقي على صلة قوية بعدد من رجال الجمعية كالشيخ محمد البشير الإبراهيمي وأحمد توفيق المدني والعربي التبسي².

وجد الشاب سعد الله وسط هذا الوضع الثقافي الجديد بمصر ضالته التي كان يبحث عنها ويتغياها؛ فضاعف من كتاباته المبدعة في مجلة (الرسالة الجديدة) و(الآداب) البيروتية و(العالم العربي)، و(البصائر) الجزائرية قبل أن تتوقف نهائيا في أبريل 1956، واستطاع أن يُعرّف بالأدب الجزائري الذي ظل مغمورا إلى حين بدراساته العديدة على صفحات (الآداب)، بالإضافة إلى ما نشره من أشعار ودراسات نقدية تتلاءم مع توجهات (الرسالة الجديدة). في تلك الأثناء اشترك في العديد من المناشط الثقافية شعرا ونثرا وإبداعا في القصة والرواية والنقد، وكثف من مطالعته المتنوعة، وكانت فترة تواجده بدار العلوم فترة خصبة توازي فيها التكوين العلمي الرصين وإشباع الرغبة من المطالعة مع المعاناة المتواصلة التي لا تعرف الراحة أو الانقطاع ، وتمكن في نهاية المطاف من الانتصار بطبع باكورة إنتاجه الشعري (النصر للجزائر) في (دار الفكر) بالقاهرة سنة 1957³.

يلخص أبو القاسم سعد الله تجربته الصحفية في جريدة البصائر قائلا: ⁴

¹ - ينظر: - ينظر المرجع السابق .

² - ينظر: - د. مولود عويمر، أبو القاسم سعد الله يحاضر عن تجاربه مع جمعية العلماء المسلمين <http://www1.albassair.org> الجزائريين ، جريدة البصائر، العدد: 525 / 12 ديسمبر 2010 / الموقع:

³ - ينظر: المرجع نفسه .

⁴ - ينظر: المرجع نفسه .

" ... فقد كنت أرسلها من تونس، وكانت مسؤوليتي كممثل لبعثة جمعية العلماء في تونس؛ تجعل الجريدة تهتم بمراسلاتي لأنني لا أبعث إليها نشاطي الخاص من شعر وقصة ومقالة فقط، وإنما كنت أبعث إليها أيضا نشاط البعثة كالمحاضرات والزيارات، وأسماء الناجحين من الطلبة الجزائريين والمسابقات، فكانت البصائر تنشر مراسلاتي تارة بحذافيرها، وتارة كانت تتصرف فيها بما تراه ضروريا....ولكن ظهور إسعي مطبوعا في الجريدة وحديث الطلبة معي عن مراسلاتي بعد ظهورها، قد شجعني على إرسال المقالات والقصائد وغيرها إلى البصائر، فكانت تهملها في أغلب الأحيان. ولكن ذلك لم يفت في عضدي. بل كان يحفزني على المزيد من المراسلات، وتحسين أسلوبي وتعميق قراءتي.¹ ... وكنت أعرف أن نوع كتابتي لا يتماشى تماما مع مواضيع الجريدة واهتمامات قرائها، فقد كنت غير تقليدي فيما أكتب، بل كنت متأثرا بمدرسة المهجر والمدارس الشعرية والأدبية الحديثة في المشرق، بينما كانت تغلب على كُتّاب البصائر عندئذ الثقافة والأساليب التقليدية..."².

التجربة الشعرية عند سعد الله :

1- مفهوم الشعر عند سعد الله :

لاشك أن سعد الله كان حريصا على تحديد وتعريف مصطلحاته قبل أن يخوض في غمار البحث وتحليل المعطيات والتفاصيل، وهو عندما يتصدى لشرح مفهومه للشعر يفرق بين الشعر الخطابي العابر مثل الكلام اليومي الذي يؤدي وظيفته الاتصالية التي تنتهي في حينه، ثم تتبخر مع الزمن، والشعر الحي الخالد الذي لا يزول بأداء وظيفته الأنية بل تسري تلك الوظيفة الاتصالية في اعماق الزمن وتخطب الأجيال اللاحقة بنفس الروح والحيوية والتحرّيز يقول سعد الله في مقدمة الطبعة الثانية من ديوانه (النصر للجزائر) الصادر عن مجلة (أمال) في أوائل سنة 1984:

"إن هناك شعرا لا يعتريه القدم والذبول بل يظل محتفظا برونقه وجدته مهما طال عليه الزمن، ونعني به الشعر الصادق الإحساس المعبر عن انفعال إنساني عميق بأدوات قادرة على توصيل ذلك الإحساس وهذا الانفعال الى الآخرين."³

¹ - ينظر: المرجع نفسه.

² - ينظر: المرجع نفسه.

³ .أبو القاسم سعد الله ، مقدمة ديوان الزمن الأخضر ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985،

ص 17.10.

يضيف سعد الله موضحا: " ليست هذه الأدوات الا ما اصطلح عليه الناس باللغة والموسيقى الشعرية والصورة والخيال"¹، ويشير سعد الله الى أنه اذا توفرت تلك العناصر الأربعة اي اللغة الشعرية والإيقاع الموسيقي والصورة الشعرية المبهرة والخيال البارع، فينجم عنها شعر حي خالد ومتجدد على الدوام، ولا يهم عندئذ ان قيل في عهد هوميروس او امرئ القيس او اليوم.ذلك هو مفهوم سعد الله للشعر الحي الخالد.²

2-وظيفة الشعر ودوره عند سعد الله:

يؤكد سعد الله وظيفة الشعر ودوره في واحدة من بواكيره الشعرية (هزار الشعر)

كتبها

في مارس 1953

كم من شعوب أضاء الشعر منهبها

إلى الحقيقة فانجلت دياجها

الشعر قنبلة مودة لهبا

اذا تفجرت الأوزان تلقيا

الشعر معجزة الإلهام طافحة

من النبوغ الالهي في سواقها

الشعر باقة ربحان تصفها

أيدي الملائك والأحلام تهديها

عد للطبيعة وابعث حسنها نغما

فانما الشعر ألحان نغمتها³

في قصيدة (طريقي..) وهي أشهر قصائد سعد الله الحرة يشير الى روح الشعر وخلوده:

سوف تدري راهبات وادي عبقر

كيف عانقت شعاع المجد احمر

وسكبت الخمر بين العالمين

ينظر: أبو القاسم سعد الله ، مقدمة ديوان الزمن الأخضر ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر¹، 1985

ص17.10.

المصدر نفسه..²

ينظر: أبو القاسم سعد الله ، ديوان الزمن الأخضر ، ص70، 71.³

خمر حب وانطلاق ويقين
ومسحت أعين الفجر الوضوية
وشدوت لنسور الوطنية
ان هذا هو ديني
فاتبعوني أو دعوني في مروي
فقد اخترت طريقي يا رفيقي¹.

إذا كانت إسهاماته الأدبية وما تميزت به من تنوع وإبداع قد سجلت حضورها بشكل لافت في المشهد الثقافي، فقد تعرف من جهة أخرى على نخبة من رموز الأدب والثقافة وانجذب إليهم بمواهبه وطموحاته، وانجذبوا بدورهم إليه ، ليكون إضافة جديدة تدعم تطلعاتهم، وتضفي المزيد من المصداقية على مذهبهم الأدبي الجديد الثائر على القديم، وكان من ألمع الأسماء التي تعرف عليها الشاعر صلاح عبد الصبور والشاعر فاروق شوشة والشاعر أحمد عبد المعطي حجازي وعبد الرحمن الخميسي ويوسف السباعي ورجاء النقاش ومحمود أمين العالم ومحمد الفيتوري وعبد الرحمن الشرقاوي.

تحدث عن تجربته الأولى في الشعر في كتابه "دراسات في الأدب الجزائري الحديث" و قائلًا: "كنت أتابع الشعر الجزائري منذ 1947 ، باحثا فيه عن نفحات جديدة ، و تشكيلات تواكب الذوق الحديث ، و لكّتي لم أجد سوى صنم يركع أمامه كل الشعراء بنغم واحد ، و صلاة واحدة ، غير أنّ اتصالي بالإنتاج الأدبي ، و المدارس الفكرية و النظريات النقدية حملني على تغيير اتجاهي و محاولة التخلّص من الطريقة التقليدية في الشعر"².

عوامل ظهور الشعر الحر في الجزائر:

¹. المصدر نفسه. ص. 144.

² - ينظر: أبو القاسم سعد الله ، دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، دار الرائد للكتاب ط5 الجزائر

، 2007، ص 50 و ما بعدها ، وينظر كذلك مقدمة ديوانه الزمن الأخضر : ص 16 .

انطلاقاً مما قاله "سعد الله" يمكن أن نلاحظ أحد أسباب ظهور الشعر الحر في الجزائر، وهو الاحتكاك بالمشرق وإطلاع بعض الشعراء على هذا اللون الشعري الجديد من خلال دراستهم في كلٍّ من "مصر و لبنان"¹.

أمّا العامل الهام الذي دفع بشعراء الجزائر إلى الشعر الحر هو الثورة ، فبانطلاق الرصاصة الأولى للثورة في ليلة أول نوفمبر التي تعلن عن فجر جديد للجزائر على جميع الأصعدة ، فانطلقت التجربة الشعرية الجديدة ، لتساوق الأحداث آنذاك ، فالثورة كفيلة لتدفع الشعراء إلى البحث عن طريقة جديدة للتعبير عنها ، " و بدأ أتاح الشعر الجديد للشاعر فرصة التعبير عن تجاربه بحرية (...) ، فأصبح يشكّل القصيدة وفق تجربته الخاصة و حسب الموسيقى كما يحسّها في نفسه و بما يتلاءم و الرؤية الجديدة للواقع المتغيّر ... "².

كما ربط بداية الشعر الحر في الجزائر بعامل آخر ، و هو العامل النفسي " أي برغبة عبّرت عنها الحاجة إلى بيتٍ تحرّر ذات الشاعر من قيود القصيدة القديمة ، ويسمح له بتمثيل الشرائط التاريخية ووقعها على ممارسته الفردية ، و حتى و لو كانت ردّة فعل نفسية انتقلت إليه من الأثر الرومانسي "³؛.. فالحالة النفسية للشعراء آنذاك تتوق للتحرر، و إخراج كل تلك الانفعالات التي فرضها ذاك الجو المضطرب .

لا ننسى أن نذكر مجلّة " اللآداب " التي ساهمت في ظهور الشعر الحر في الجزائر و انتشاره ، وذلك من خلال نقلها التجارب الجديدة في ميدان الشعر و تشجيعها للعمل الأدبي ، فتأثّر بها جيل الشعراء الرّواد ، كما تأثّر بها القراء خاصة الشباب في تلك الفترة .
تعتبر قصيدة " طريقي " هي أول قصيدة حرّة في مشوار الشعر الحر في الجزائر لـ " أبي القاسم سعد الله " التي نشرها في " البصائر " في 25 مارس 1955 ، و هي من بحر " الرمل " ، جاءت على ستة مقاطع ويعبّر من خلالها عن التغيّرات الجذرية التي طرأت على البلاد من ثورة و كفاح و نضال ،

- ينظر : شلتاغ عبود شرّاد : حركة الشعر الحر في الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب، /الجزائر 1985 . ص 63.

- جريدة البصائر ، العدد 16/213 جانفي 1953. نقلا عن : شلتاغ عبود شرّاد : حركة الشعر الحر في الجزائر. ص 63.

- ينظر : المرجع نفسه .³

و اختياره لطريق النضال ، وهذا بعض منها¹:

يا رفيقي

لا تلمني عن مرويقي

فقد اخترت طريققي !

وطريقي كالحياة

شائك الأهداف مجهول السمات

عاصف التيار وحشي النضال

صاحب الأنات عريبد الخيال

كل مافيه جراحات تسيّل

وظلام وشكاوى ووحول

تترأى كطيوف

من حتوف

في طريققي

يا رفيقي²

لقيت قصيدة "طريقي" قبولا واستحسانا لدى الشعراء ، فتوالت القصائد الحرّة .
في المرحلة الاولى و هي مرحلة الثورة : 1954 . 1960 " إذ ظهر جيل الشباب في هذه
الفترة ، كان معظمه خارج القطر الجزائري ، لغرض الدراسة حيث وجدوا كثيرا من
الحرية الفكرية ، ووسائل النشر ، كما احتكوا بنظرائهم من المشاركة .
إن هذه الظاهرة الشعرية إنما وجدت نتيجة إحساس الشعراء بضرورة مساهمة
الحياة المعاصرة، وخاصة بعد نكسة 8ماي 1945 التي راح ضحيتها الآلاف من الأبرياء
الشيء الذي دفعهم إلى البحث عن قالب في جديد يعبرون فيه عن روح العصر "إن
من أهم العوامل إحساس الشعراء الجزائريين بضرورة التحول عن هذا القالب التقليدي
الهندسي، الصارم إلى قالب جديد يستجيب لمتطلبات الحياة المعاصرة، ويتفاعل مع
التطورات السياسية والثقافية والاجتماعية التي كانت تشهدها الجزائر بعد الحرب

¹ - ينظر :المرجع نفسه .

² - أبو القاسم سعد الله : ديوان الزمن الأخضر. ص 141 وما بعدها .

العالمية الثانية"¹ وكتابة هذا النوع من الشعر إنما جاءت على أيدي الشعراء المغتربين بالمشرق العربي، ونحن نعلم بأن المشاركة أحدثوا ثورة كبرى في ميدان الأدب في تلك الفترة متأثرين بالأدب الغربي الذي عرف تطورا مذهلا شأنه شأن الصناعة، فما كان على الجزائريين سوى احتواء التجربة و"سعد الله" نفسه اعترف بفضل المشاركة عليه في كتابة القصيدة الحرة حيث قال: «غير أن اتصالي بالإنتاج العربي القادم من المشرق - ولا سيما لبنان- وإطلاعي على المذاهب الأدبية والمدارس الفكرية والنظريات النقدية حملني على تغيير اتجاهي ومحاولة التخلص من التقليدية في الشعر، وتمشيا مع هذا الخط نشرت بعض القصائد التي كانت رتيبة التفاعيل ولكنها حرة القوافي مثل: (احتراق، خميلة، ربيع) ثم لم ألبث أن تحررت من التفاعيل أيضا».²

هذا مقطع من قصيدة "احتراق" يقول فيها:

أفي كل قلب أزيز النذور
وفي كل أفق ضيا وأوار
وفي كل عرق دم يتلظى
يخور يذوب شذا وافتخار
تنزي له كل جارحة
وتطفوبه في فضاء بخار
فلا عصب طافح بالأمانى
ولا وترهانج للضمار
عشقنا الحياة وحولا وشوكا
فجئنا نهيبها للبذار³

يضاف إلى ذلك عامل آخر ساعد على دفع هذه التجربة إلى الأمام وهو بروز بعض المجالات العربية التي كانت تدعو إلى الحداثة الشعرية ونخص بالذكر مجلة "الأداب" اللبنانية التي وجد فيها شعراءنا متنفسا رحبا لنشر أعمالهم فيها: «وهذا ما نلفيه لدى الشاعر أبي القاسم سعد الله الذي فتحت له مجلة الآداب صدرها، وغيرها من المجالات

- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية؛ دار الغرب الاسلامي بيروت - لبنان 1985، ص152.

--ينظر: أبو القاسم سعد الله، مقدمة ديوان النصر للجزائر ص 10، 17..

-- أبو القاسم سعد الله: ديوان الزمن الأخضر. ص131.

العربية ينشر فيها قصائده، ويعرف بالحركة الشعرية والنقدية في الجزائر مثله كمثله
غيره من الأدباء والنقاد الجزائريين¹

وضمن تداعيات البحث عن التجديد الشعري جرب سعد الله قصيدة النثر (إلى أين)،
سنة 1954 ثم أحجم عن هذا النوع من التجريب حيث كتب: " التجديد وحده لا يكفي.
فالخروج عن مألوف الوزن والقافية، وحتى الموضوعات والتصورات، والتمرد عن
القواعد النحوية والصرفية قد تجعل من الشاعر مهرجا ولكن لا تجعل منه شاعرا
خالدا".²

- قضايا الثورة والنضال في تجربة سعد الله الشعرية :

لقد سخر سعد الله الثائر شعره للقضايا الوطنية وللإشادة بعظماء الرجال لما قدموه
للإنسانية ، فتنوعت قصائده سيما ما تعلق بالشعر الحر و هو الشاعر الوطني الثائر ؛
لذا جاءت معظم قصائد دواوينه الشعرية (النصر للجزائر و ثائر و حب و الزمن
الأخضر) ثورية نضالية وجدانية ؛ حيث كانت الثورة تسري في كيانه سريان الدم في
العروق، لطالما أشاد بها وفي هذا السياق كتب عدة قصائد من الشعر الحر في كفاح
الشعب الجزائري، منها قصيدة "الطين"، و غيرها التي نستشف فيها الكثير من التفاؤل
بمستقبل مشرق، داعيا إلى الصبر لأن الفرج قريب يقول فيها:

يا أخي الضارب في دنيا الكفاح
أيها الساخر من عصف الرياح
يا ابن أمي، أيها الدامي الجراح
اصطبر، و ابشر بإشراق الصباح
فالغد المنشود خفاق الجناح

يا أخي الرابض في تلك البطاح..
إنك اليوم سفير الفلاح
حولك الأمة آمالا فساد
فخذ الحق اغتصبا و اكتساح

- أحمد يوسف: يتم النص والجينيولوجيا الضائعة ، منشورات الاختلاف الجزائر 2002، ص 64. ¹

. ينظر: أبو القاسم سعد الله، مقدمة ديوان النصر للجزائر ص 17.10 و كذلك. شلتاغ عبود شراد ²
:حركة الشعر الحر في الجزائر. ص 63 و ما بعدها.

أيها الرابض في تلك البطاح¹

في قصيدة أخرى بعنوان "الثورة" يمتدح ليلة نوفمبر معتبرا إياها « الحلم الذي تطلعت إليه الأجيال طويلا حتى كاد اليأس من تحقيقه يتسرب إلى النفوس ولكنه تفجر كما تفجرت عواطف الشعب»²

كان حلما واختمار
وكان لحننا في السنين
كان شوقا في الصدور
أن ترى الأرض تثور
أرضنا بالذات أرض الوادعين
أرضنا السكرى بأفيون الولاء
أرضنا المغلولة الأعناق من وقت مضى ...
كان حلما، كان شوقا، كان لحننا،
غير أن الأرض ثارت
والهتافات تعالت
من رصاص الثائرين
والكثافات تهاوت
مثلما تهوى الظنون
وبراكين بلادي هزت الدنيا ومارت
كقلوب الكرماء الوادعين
وصحا أهلي من سكر السنين³

عن دور الشاعر في معركة التحرر ينظم أبياتا شعرية موسومة: (شاعر حر) فيها يقول
:
النار رمز جهاده

- أبو القاسم سعد الله، النصر للجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط3 الجزائر 1986. ص 42. ص¹
50.

- محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية ص 221. ص²

- ا ينظر: أبو القاسم سعد الله، الزمن الأخضر. ص 179 و 180. ص³

والنور لون وجوده

والحب ملء فؤاده

واللحن ملء قصيده

يصوغ للناس شعره

من دمه ودموعه

وكم رموه بنظره

وكم سعوا لوقوعه¹

إن المتأمل في الأبيات السالفة سيلاحظ أن سعد الله كأنما يتحدث عن نفسه ، فقصائده فعلا هي نار وحمم تدك حصون الأعداء وكيان المستعمرين الطغاة، وهي نور ومعرفة تنير الدرب حتى لا ينزلق المرء في المتاهات وأتون العنف الأعى فالعنف هنا أفرزته ظروف المستعمر الغاشم وليس نزعة لصيقة بالإنسان الجزائري ، وهي كذلك مكرسة لقضايا وطنه وبطولات شعبه، وكتابة الشعر هي معاناة ومكابدة حقيقية فحبرها من الدم والدموع ، وخطابها موجه للناس العاديين البسطاء وليس للنخب او ذوي الأبراج العاجية. يقول الاستاذ المؤرخ أحمد توفيق المدني باعتباره رئيس مكتب القاهرة لوفد جبهة التحرير الوطني والأمين العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، في المقدمة التي كتبها لديوانه (النصر للجزائر) سنة 1957: "من يتأمل قصائد ومقطوعات شاعرنا الناشئ الثائر تعبر عن جميع تلك الأحاسيس وتختلج بكل هاتيك المشاعر، وتتناول بيد الفنان الملهم مختلف عواطف الشعب وزفرلته والامه، وعذابه وآماله، فتصوغها ، دون تكلف ، شعرا ساميا، ان لم يرض كل جزائري عن ألفاظه وموازينه وقوافيه فأنا أؤكد انه يعبر أصدق تعبير عما تجيش به نفس كل جزائرية وكل جزائري ، وجميعهم جنود هذه الثورة الجامحة وأعوانها...².

كانت هذه لمحة موجزة عن التجربة الشعرية عند سعد الله والعوامل التي فرضت نفسها على شعراء تلك الفترة لممارسة هذه التجربة التي اتّسمت في هذه المرحلة بكثرة الإنتاج الشعري ، و نذكر من الشعراء، أبو القاسم سعد الله " و " محمد صالح باوية " و " أحمد الغوالي " . " و قد بلغ نتاج هؤلاء الشعراء قمته في هذه الفترة ما بين 1954 و 1960 .

¹ - أبو القاسم سعد الله ، ديوان الزمن الأخضر ، ص 227 و ما بعدها.

² -- ينظر : أبو القاسم سعد الله ، مقدمة ديوان النصر للجزائر.

لقد وجد هؤلاء الشعراء في الشعر الجديد تنفيذا عن الرغبة العارمة في أن يكونوا بجوار المجاهدين على أرض الوطن فشحنوا كلماتهم بكل ما استطاعوا من صدى ، بحيث أصبحت الكلمة لديهم تعبيرا عن الطلقة التي يوجهها إخوانهم إلى صدور المحتلين داخل الوطن ، لقد أرادوا أن يساهموا مساهمة فعّالة في إنجاح الثورة حتى لا تتعرض للانتكاسات التي وقعت فيها الثورات السابقة لثورة نوفمبر¹ . وهذا أضفت حركة الشعر الحر في الجزائر نفسا جديدا على الشعر الجزائري المعاصر .

أما عن مكانة سعد الله الشعرية والأدبية ؛ فيقول الأديب والقاص بشير خلف الذي عايش سعد الله عن قرب: "إن سعد الله كان أديبا مبدعا في فني الشعر والقصة، كما أنه كان من الأوائل الذين أبدعوا في الحداثة الشعرية العربية في الخمسينات من القرن الماضي"².

من أقوال سعد الله المُميزة³:

"... إني دائما كنت أقف إلى جانب حرية التعبير وحرية الرأي إلا في ثلاث مقدّسات عندي وهي: وحدة الجزائر والدين الإسلامي واللغة العربية..."
"... لم أكتب الكتاب ولا غيره مما ألفت لكي أمدح أو أجاز، إن همي الوحيد هو منح الجزائر تاريخا يشرف أجيالها الماضية و القادمة ..."
كما أوصي بضرورة الاهتمام بالكتابة قائلا: "اكتبوا حتى بأهدابكم وأظافركم إذا لم تطعكم أقلامكم، ثم اذهبوا إلى ربكم وأنتم راضون أنكم قمتم بمهمتكم الفكرية والإنسانية، ولكم مني كل التمنيات..."
"-...إن طموحاتي أبعد من خيالي...وأن إنتاجي هو مرآة نفسي، من يريد أن يعرفني معرفة دقيقة عليه أن يغوص في إنتاجي، وأن لا يكتفي منه بالاطلاع العابر ، والقراءة السطحية..."

خاتمة:

¹ -ينظر : شلتاغ عبود شراد : حركة الشعر الحر في الجزائر .ص 73-74 .

² -ينظر : محمد سريج ، أبو القاسم سعد الله... الأديب الشاعر موقع :

<http://www.echoroukonline.com>

. 01:00 2013-12-29

ينظر: أبو القاسم سعد الله، خارج السرب، (مقالات و تأملات) دار البصائر الجزائر 2008 ، ³ .
ص103 وما بعدها .

- لا شك أن التجارب في الكتابة و الابداع التي خاضها سعد الله أثناء مشواره العلمي جعلته يطلع على مختلف الثقافات العربية و الغربية أكسبته تجارب متنوعة في الكتابة و الابداع، وزادا علميا وافرا مكنه من الكتابة في مختلف مجالات الفكر و الأدب و التاريخ

- رغم تحول سعد الله عن فن الشعر و الأدب إلى التاريخ و مجالات فكرية أخرى ، إلا أنه استطاع أن يترك بصمته المتميزة في الشعر و الأدب الجزائري الحديث و المعاصر و بالأخص الشعر الحر منه ، حيث وظف التاريخ و التراث و الرمز في قصائده لاستنهاض الهمم في درب المقاومة والنضال ضد الاستعمار. - لا شك أن أعمال سعد الله و ودراساته الأدبية و النقدية تظل شاهدة على أصالته في الكتابة و الابداع فهو الرجل الذي استطاع الجمع بين كل ألوان الكتابة.

.في الأخير لايسعنا إلا الاعتراف بالتقصير في حق هذا الأديب الشاعر الموسوعي، و التنبيه إلى ضرورة الالتفات إلى كتاباته المتعددة الاتجاهات ؛ وتناول أعماله الابداعية بالدراسة النقدية الأكاديمية ، ودعوة الباحثين و الطلبة لدراسة الجوانب الابداعية المغمورة من نتاج سعد الله الشاعر والأديب الناقد...ودعوة الباحثين لمزيد من الدراسات و البحوث المعمقة حول شخصيته و منهجه في البحث في مجالات شتى خاصة في حقل التاريخ الثقافي والترجمة و تحقيق التراث والمخطوطات ؛تحقيقا لمقولته : - "...إن طموحاتي أبعد من خيالي...وأن إنتاجي هو مرآة نفسي، من يريد أن يعرفني معرفة دقيقة عليه أن يغوص في إنتاجي، وأن لا يكتفي منه بالإطلاع العابر . والقراءة السطحية ...".